يشركه فى أمره بأن يكون نبيّاً مثله، كي يسبّحا الله تعالى كثيراً بقول : سبحان الله، وكي يذكراه عزّ وجلّ كثيراً بالقلب واللسان وصالح الأعمال. إنّك كنت يا ألله دائما وأبداً بصيراً بنا.

ويؤتى الله تعالى موسى عليه السّلام سؤاله ويستجيب دعاءه، ويذكّره بالمنّة عليه الأخرى السّابقة حين أوحى عزّ وجلّ لأمّ موسى ما أوحى من عظيم الوحي والإلهام لإنقاذ الوليد موسى من فرعون الّذى كان يقتل كلّ أطفال بنى إسرائيل الذّكور خوفاً على ملكه. لقد شاء الله تعالى أن ينشّأ موسى عليه السّلام الّذى تمّ على يديه زوال ملك فرعون وأن يربَّى فى بيت فرعون الطّاغية ! ﴿والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾[1] لقد أمر الله تعالى أمّ موسى إذا خافت عليه أن ترضعه وأن تضعه فى التّابوت وهو يشبه الصُّندوق وأن تلقيه فى نهر النّيل المتدفّق. وممّا أوحى الله تعالى إلى أمّ موسى أنّ على نهر النّيل المتدفّق أن يُلْقِي التّابوت بشاطىءٍ معيّنٍ منه كي يأخذه عدوٌّ لله تعالى وعدوٌّ لموسى عليه السّلام وهو فرعون الطّاغية. وقد ألقى الله تعالى محبّةً منه على موسى عليه السّلام ابتداءً بامرأة فرعون الّتى جاء على لسانها فى حديثها مع فرعون فى سورة القصص[2] : ﴿قُرّةُ عينٍ لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولدا﴾ وقد كانت تربية موسى عليه السّلام فى بيت فرعون فى رعاية الله تعالى. ويشير السّياق إلى بعض مراحل إنجاء موسى عليه السّلام من فرعون، وذلك حين تمشى أخت موسى الّتى تقصّ أثره بأمرٍ من أمّهما وتقول لآل فرعون وقد حرّم الله تعالى المراضع على موسى[3] : ﴿هل أدلّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ وهكذا عاد موسى عليه السّلام إلى أمّه كما وعد الحقّ جلّ وعلا كي تقرّ عين الأمّ ولا تحزن.

ويشير السّياق فى إيجازٍ إلى أجزاءٍ من عناصر المنّة الأخرى. إنّ الله تعالى

---

(١) سورة يوسف ٢١.

(٢) الآية ٩.

(٣) سورة القصص ١٢.

قد نجّى موسي من الغمّ الّذى انتابه من جرّاء قتله القبطيّ وما ترتّب على ذلك من تآمر الملأ على قتله، ومن سلسلة المشقّات الّتى صادفها منذ أن خرج من مدينة مصر يخشى الطّلب إلى أن تزوّج فى مدين من بنت شعيبٍ عليه السّلام. لقد فتن الله تعالى موسى عليه السّلام فتوناً وابتلاه ابتلاءً، كما استجاب عزّ وجلّ دعاءه وكشف عنه السّوء. لقد لبث موسى عشر سنين فى أهل مدين ثمّ جاء موسى ربّه عزّ وجلّ على قدرٍ وقد بلغ كمال الرّشد فى سنّ الأربعين. إنّ الله تعالى يصنع موسى عليه السّلام على عينه، ويربّيه وفق مشيئته، ويصطنعه اصطناعاً، ويصطفيه اصطفاءً.

أما وقد اصطفى الله تعالى هارون بالنّبوّة استجابةً لدعاء موسى عليه السّلام فإنّ الحقّ عزّ وجلّ يأمرهما بأن يذهبا معاً بآياته عزّ وجلّ، ذاكريْن الله تعالى ذكراً كثيراً موصولاً آناء اللّيل وأطراف النّهار، وأن يمضيا إلى فرعون الطّاغية، وأن يقولا لفرعون قولاً ليّناً لعلّه يتعّظ أو يخشى الله تعالى. قال موسي وهارون : ياربّنا إنّا نخاف أن يَعْجَلَ علينا بالعقوبة أو أن يتجاوز الحدّ فى العصيان والعدوان. قال الله تعالى لهما : لا تخافا إنّنى معكما أسمع ما تقولون ويقول وأرى ما تفعلان ويفعل. اذهبا إلى فرعون فقولا إنّا رسولان لك من ربّك عزّ وجلّ فأرسل معنا بنى إسرائيل إلى الشّام ولا تعذّبهم. قد جئناك بآيةٍ بيّنةٍ من ربّك عزّ وجلّ. والسّلامة من العذاب على من اتّبع الهدى فآمن وعمل صالحاً. إنّ الله تعالى قد أوحى إلينا أنّ العذاب على من كذّب بلسانه وأعرض بقلبه وعمله.

وامتثل موسي وهارون عليهما السّلام لأمر البارىء عزّ وجلّ وها هو ذا فرعون الطّاغية يسألهما فى إنكار مع ذكر اسم موسى عليه السّلام لأنّه هو الأصل : ﴿قال فمن ربّكما يا موسي﴾ ويكون الجواب على لسان موسى عليه السّلام بأنّ ربّنا هو الله تعالى الّذى أعطى كلّ شيءٍ خلقه الهيئة الّتى هو عليها ثمّ هداه إلى المهّمة المنوطة به. قال فرعون : فما شأن القرون الأولى الّتى لم تُسْلِمْ لإلهكما يا موسى؟ قال موسى : علم تلك الأمم عند ربىّ عزّ وجل في كتابٍ يسجّل كلّ

صغيرة وكبيرة ويحصيها، لا يضلّ ولا يخطىء ربىّ عزّ وجلّ ولا ينسى شيئاً ولا يتركه. إنّه ربىّ عزّ وجلّ الذى جعل لكم الأرض ممهّدة، وسلك لكم فيها طرقاً، وأنزل من السّماء ماءً فأخرج عزّ وجلّ بذلك الماء أصنافاً شتّى من النّبات. لقد قيل للنّاس : كلوا ممّا رزقكم الله تعالى من الثّمار وارعوا أنعامكم من النّبات : إنّ فى ذلك لآيات بيّنات على قدرة الله تعالى لأولى العقول الرّاجحة الّتى تنهى عن كلّ قبيح. وقيل للنّاس أيضا : من الأرض خلقكم الله تعالى فى هيئة آدم عليه السّلام أساساً، وفيها نعيدكم بعد موتكم، ومنها نخرجكم مرّة أخرى يوم القيامة للحساب والجزاء، الثّواب والعقاب.

ويقرّر السّياق أنّ ربّ العزّة والجلال أرى فرعون كلّ آياته عزّ وجلّ البيّنات الّتى أيّد بها موسى عليه السّلام دليلاً على قدرة الله تعالى ووحدانيّته فكذّب بها كلّها وأبى أن يذعن للحقّ. بل إنّ فرعون تمادى فى غيّه إلى الحدّ الّذى أخذ معه يحارب الحقّ ويصدّ عن سبيل الله تعالى. إنّه يقول لموسى عليه السّلام فى أسلوب الاستفهام الإنكاري : ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾ ويستمرّ فرعون فى غيّه ويعلن أنّه هو وملأه سوف يأتون موسى بمثل سحره. ولمّا كانت جملة «أتى» تدلّ على البعد، وكانت فى القول : ﴿فلنأتينّك﴾ تدلّ على البعد الزّمانيّ فى حين تدلّ جملة «جاء» فى الآية الكريمة السّابقة فى القول : ﴿أجئتنا﴾ تدل على القرب ومجىء موسى عليه السّلام الفعليّ فإنّه يترتّب على إتيان فرعون بسحره بعدٌ زمانيٌّ ووقتٌ كاف. وإنّ فرعون الّذى يطلب من موسى أن يحدّد موعِدا لا يخلفه الطّرفان المتباريان يطلب كذلك تعيين المكان العَدْل النَّصَف الّذى يرضى عنه على السّواء الطّرفان المتنازعان. ويعيّن موسى عليه السّلام ضحى يوم عيدهم وزينتهم فى المكان الذى يجتمع النّاس فيه وقت الضُّحى. فانصرف فرعون فجمع مكره وسحره ثمّ أتى بالسّحرة الّذين أنذرهم موسى بالهلاك إن هم افتروا على الله الكذب وخوّفهم بعذاب الله تعالى المستأصل شأفتهم. إنّهم إن اعتبروا المعجزات الّتى أيّده الله تعالى بها من جنس سحرهم وتصرّفوا وفق ذلك فإن

مصيرهم الخيبة والخسران. وقد تنازع السّحرة أمرهم بينهم وقالوا : إن كان موسى ساحراً فإنّا نغلبه وإن كان من السّماء فله أمر. وقد أسرّ السّحرة النّجوى فيما بينهم وقالوا إنّ موسى وهارون لساحران كبيران يريدان أن يخرجاكم من أرض مصر ويذهبا بمجدكم التّليد وعزّكم الأكيد من جرّاء ممارستكم للسّحر. إنّ واجبكم أن تجمعوا مكركم وتوحّدوا صفّكم أمام هذين السّاحرين الكبيرين. وقد أفلح اليوم من استعلى على خصمه وغلبه. قال السّحرة لموسى إمّا أن تلقي سحرك أوّلاً وإمّا أن نكون أوّل من ألقى سحره. وبإلهامٍ من الله تعالى يطلب منهم موسى عليه السّلام أن يلقوا هم أوّلاً كي يظهر منتهى براعتهم فى السّحر. فألقى السّحرة حبالهم وعصيّهم فإذا بالحبال والعصيّ يخيّل لموسى عليه السّلام ولغيره من الحضور أنّها حيّاتٌ تسعى وثعابين تجرى قد ملأت الوادى وركب بعضها بعضاً. فأحسّ فى نفسه خيفةً موسى عليه السّلام الّذى خشي أن يختلط على النّاس سحر السّحرة بمعجزته عليه السّلام بسبب التّشابه ظاهراً بينهما. وربّما دبّ إلى نفس موسى عليه السّلام وراء ذلك نوعٌ من الخوف لامتلاء الوادى بالحيّات والثّعابين. ويُنْهَى موسى عليه السّلام عن الخوف، ويُبَشَّر بالنّصر الأكيد، ويؤمر بأن يلقي العصا الّتى فى يمينه كي تبتلع ما صنع السّحرة لأنّ الّذى صنعوه ليس سوى كيد ساحر : ﴿ولا يُفْلح السّاحر حيث أتى﴾ ولا ينجح السّاحر حيث كان.

ويفعل موسى عليه السّلام ما أمره الحقّ عزّ وجلّ بفعله ويُهزم السّحرة هزيمةً نكراء أمام النّاس جميعا. وبما أنّ السّحرة قد تأكّدوا بأنّ موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين وأنّ العناية الإلهيّة تؤيّده فإنّ السّحرة تجاه هذا الشّعور الصّحيح الجديد تبيّنوا كأنّ قوّةً علويّةً روحيّة تلقى بهم على وجوههم سجّدا لله تعالى معلنين على رءوس الأشهاد بأنّهم قد آمنوا بربّ العالمين ربّ موسى وهارون.

وأمام هزيمته النّكراء لم يجد فرعون الطّاغية من شيءٍ يقوم به سوى أن ينكر على السّحرة إيمانهم بموسى قبل أن يأذن هو لهم بذلك، وأن يتّهم السّحرة بأنّ

موسى عليه السّلام هو كبيرهم الّذى علّمهم السّحر، وأن يهدّدهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، كأن يقطع اليد اليمنى والرّجل اليسرى، ويصلبهم على جذوع النّخل كي يعلم السّحرة أنّ فرعون أشدّ عذاباً وأبقى من ربّ موسى ربّ العالمين! ويعلن السّحرة على رءوس الأشهاد بأنّهم لن يختاروا فرعون ويفضّلوه على الّذى جاءهم فعلاً من الآيات البيّنات الدّالّة على قدرة الله تعالى. وإنّ مؤمنى السّحرة جميعاً ليقسمون بالله تعالى الّذى فطرهم على أنّ هذا هو موقفهم الأكيد ورأيهم الأخير. أمّا فرعون فليفعل ما يريد فإنّه ليس له سلطانٌ إلاّ فى هذه الحياة الدّنيا ثمّ لا سلطان له بعد ذلك.

ويعلن السّحرة أنّهم آمنوا بربّهم عزّ وجلّ الّذى خلقهم وربّاهم بنعمه ليغفر لهم عزّ وجلّ ذنوبهم وإكراه فرعون لهم على استعمال السّحر ضدّ موسى وهارون عليهما السّلام. إنّ الله تعالى خيرٌ ثواباً منك يا فرعون وأبقى عذاباً.

ويعقّب السّياق بما يكاد يكون مواصلةً للحديث على ألسنة مؤمنى السّحرة. إنّ من يأتى ربّه عزّ وجلّ يوم القيامة كافراً فإنّ له جهنّم لا يموت بها فيستريح ولا يحيا حياةً هنيّة رضيّة. أمّا من يأتى ربّه عزّ وجلّ مؤمناً قد عمل الصّالحات فأولئك لهم الدّرجات الرّفيعة فى جنّات الخلود الّتى تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار خالدين فيها أبداً، وذلك جزاء من تطهّر.

وقد نفّذ فرعون تهديداته فكان بإذن الله تعالى السّحرة أوّل النّهار كافرين وكانوا بفضل الله تعالى آخر النّهار شهداء، كما نفّذ فرعون فى بنى إسرائيل القول الّذى جاء على لسانه فى الآية الكريمة السّابعة والعشرين بعد المائة من سورة الأعراف : ﴿سنقتّل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون﴾.

ويتحوّل السّياق إلى الحديث عن بنى إسرائيل الّذين سامهم فرعون الخسف ويقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال قد أوحى إلى موسى عليه السّلام أن يسير ليلاً بعباده عزّ وجلّ من بنى إسرائيل متّجهاً بهم شرقاً تجاه البحر الأحمر. وحينما طاردهم فرعون وجنوده وتراءى الجمعان وقال قوم موسى عليه السّلام إنّا لمدركون من

فرعون وجنده أمر الله تعالى موسى عليه السّلام أن يضرب لهم بعصاه طريقاً فى البحر يابساً ممهّداً وطمأنه عزّ وجلّ أنه لا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده ولا يخاف غَرَقاً ولا وَجَلا. وحينما سلك فرعون وجنوده الطّريق فى البحر مطاردين موسى وبنى إسرائيل أطبق عليهم البحر وغطّاهم من الماء اللّجّيّ ما غطاهم وأغرقهم عن بكرة أبيهم. وهكذا أضلّ فرعونُ قومه وما هداهم حسب زعمه سبيل الرّشاد.

ويعقّب السّياق على هذه الحوادث الجسام وينادى بنى إسرائيل ويذكّرهم بنعمة الإنجاء هذه من عدوّهم فرعون وبنعمة المواعدة جانب الطّور الأيمن فى شبه جزيرة سيناء كي يعطي الله تعالى موسى عليه السّلام وبنى إسرائيل التّوراة، وبنعمة إنزال المنّ والسّلوى عليهم فى التيه[1] لقد أُمِر بنو إسرائيل أمر إباحة أن يأكلوا من طيّبات ما رزقهم الله تعالى ونهوا أن يطغوا فى ذلك الرّزق وأن يبدّلوا نعمة الله تعالى كفراً وأن يكفروا النّعمة بدل الشّكر لله تعالى عليها فينزل عليهم غضب الله تعالى فإنّ من نزل به غضب الله تعالى فقد تردّى فشقى. ويقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى غفّار الذّنوب لمن تاب توبةً نصوحاً وآمن وعمل صالحاً ثمّ استقام على الهدى.

ولمّا كانت مواعدة موسى عليه السّلام وبنى إسرائيل جانب الطّور الأيمن وقد عَجِل موسى عليه السّلام إلى ربّه عزّ وجلّ وسبق قومه إلى المكان الموعود والموعد المحدّد وأتمّ موسى عليه السّلام أربعين ليلةً يعبد الله تعالى فيها ثمّ آتاه التّوراة بعدها، وفى تلك الأثناء عبد بنو إسرائيل العجل فإنّ السّياق يتحوّل إلى الحديث فى ذلك. ويبدأ السّياق بتقرير سؤال الحقّ عزّ وجلّ عبده المصطفى عليه الصّلاة والسّلام عن السّبب وراء سبقه قومه إلى المواعدة. لقد أجاب موسى عليه السّلام بالاعتذار لقومه بأنّهم يَقْفون أثره أمّا هو فقد عَجِل إلى ربّه عزّ وجلّ ابتغاء مرضاته عزّ وجلّ، قال عزّ وجلّ فإنّا قد ابتلينا قومك من بعدك وأضلّهم السّامريّ

(١) تأمّلات فى سورة البقرة للمؤلّف ١/ ٣٦٢.

فحملهم على عبادة العِجل. فرجع موسى عليه السّلام شديد الغضب على قومه شديد الحزن لتورّطهم فى الشّرك. قال يا قومى ألم يعدكم ربّكم وعداً حسناً بإعطائكم التّوراة فى الموعد الّذى قدّره العزيز الحكيم، أفطال عليكم الوقت بل أردتم بصنيعكم هذا وعبادتكم العجل أن يحلّ عليكم غضبٌ من ربّكم فأخلفتم موعدى باقتفاء أثرى وبقيتم فى موضعكم. قال بنو إسرائيل لموسى عليه السّلام ما أخلفنا موعدك باختيارنا وقدرتنا ولكنّا حُمّلنا أثقالاً من حليّ قوم فرعون كنّا استعرناها ولم نتمكن من إعادتها لأصحابها فألقيناها فى الحفرة من النّار الّتى عملها السّامريّ لهذا الغرض. وكذلك فعل السّامريّ فألقى ما معه من الحليّ وما فى قبضة يده من التّراب الّذى تحت حافر فرس جبريل عليه السّلام يوم فلق البحر وكان السّامريّ قد أخذه. لقد أخرج السّامريّ لبنى إسرائيل عجلاً جسداً من لحمٍ ودمٍ له خوار فقال الضّلاّل من بنى إسرائيل بقيادة السّامريّ هذا العجل هو إلهكم وإله موسى فنسي موسى إلهه عندكم وذهب يطلبه ويبحث عنه!

وينكر السّياق على الضّلاّل عبادتهم العجل وهم يرون أنّه لا يكلّمهم ولا يردّ عليهم قولاً ولا يملك لهم ضرّا لو لم يعبدوه ولا نفعاً لو أنّهم عبدوه. كما يقرّر السّياق أنّ هارون عليه السّلام قد قال لقومه قبل عودة موسى عليه السّلام يا قومى إنّما ابتليتم بعبادة العجل وإنّ ربّكم المعبود بحقّ هو رحمن الدّنيا والآخرة فاتّبعونى وأطيعو أمرى. قالوا لن نزال نعبد العجل حتىّ يرجع إلينا موسى.

وحينما رجع موسى عليه السّلام قال يا هارون ما منعك حين رأيتهم ضلّوا عن سواء السّبيل أن تتّبعنى. أفعصيت أمرى لك باتّباعى وإحسان الخلافة فى قومى. قال هارون يا ابن أمّى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنّى خشيت لو اتّبعتك ببعض بنى إسرائيل فقط أن تقول فرّقت بين بنى إسرائيل ولم تحفظ قولى لك بجمع كلمتهم. قال موسى فما شأنك يا سامريّ وما الّذى دهاك. قال السّامريّ علمت ما لم يعلموه فقبضت بكفّى قبضةً من التّراب الّذى كان تحت حافر فرس جبريل فألقيتها على النّار المتأجّجة فى الحفرة الّتى فيها حُلِيّ قوم فرعون وكذلك

زيّنت لى نفسى بأنّ الحياة سوف تدبّ فى العجل المصوغ من الحليّ المذابة بعد أن ألقي عليها ذلك التّراب. قال موسى للسّامريّ فإنّ لك فى أيّام حياتك أن تقول لكلّ شخصٍ لا تمسّنى ولا أمسّك وابتعد عنّى، وإنّ لك موعداً يوم القيامة لعذابك لن يغيب عنك ولن يتخلّف. وانظر إلى إلهك الّذى مكثت عاكفاً على عبادته لنحرّقنّه بالنّار قطعةً قطعة، ثمّ نجعله هباءً تذروه الرّياح وذلك بتطويح ذرّاته فوق البحر تطويحاً وتعريضها لأنواع الرّياح.

ويختتم الحديث عن موسى عليه السّلام وفرعون الطّاغية بتقرير الحقيقة وهي أنّ الإله المعبود بحقّ هو الله الذى لا إله إلاّ هو والّذى أحاط بكلّ شيءٍ علماً.

((٣))

((العذاب الشّديد يوم القيامة للمعرضين عن القرآن الكريم والثّواب الأكيد للمؤمنين))

الآيات (٩٩-١١٤)

كما قصصنا عليك يا محمّد نبأ موسى وفرعون بالحقّ نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق، وقد أعطيناك يا محمّد من عندنا موعظةً هي القرآن الكريم. من أعرض عنه فإنّه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً، خالدين فى العذاب بسببه، وساء ذلك الحِمْل الثّقيل يوم القيامة لهم حِمْلا. يوم يُنْفَخ فى الصّور ويسوق الله تعالى المجرمين زرق العيون بسبب الأهوال والعطش إلى جهنّم، يسرّ بعضهم إلى بعضٍ القول : ما لبثتم فى الحياة الدّنيا إلاّ عشرة أيّام بلياليهنّ. نحن أعلم بما يقولون حين يقول أرجحهم عقلاً : ما لبثتم فى الحياة الدّنيا إلاّ يوما. ويسألك يا محمّد قومك عن الجبال فقل ينسفها ربىّ نسفاً فيجعل أرضها مستويةً ملساء لا نبات فيها ولا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعا. فى ذلك اليوم يتّبع النّاس الدّاعي إلى الحساب والجزاء لا عِوَجَ لهم عنه وسكنت الأصوات للرّحمن فلا تسمع إلاّ صوت وطء الأقدام فى أثناء السّير. فى ذلك اليوم لا تنفع الشّفاعة إلاّ شفاعة من أذن له

الرّحمن ورضي له قولا. يعلم عـزّ وجلّ ما أمامهم من شئون الآخـرة وما خلفهم من شئون الدّنيا ولا يحيـطون به علماً. وذلّـت الوجوه للحيّ الّذى لا يموت القائم على شئون خلقه تقديراً وتدبيراً. وقد خسـر من حمل معه إلى يوم القيامة شركا. أما من يعمل الصّالحـات وهو مؤمن فإنّه لا يخاف ظلماً بزيادة سيّـئات ولا هضماً بحذف حسنات. وكـما آتيناك من عندنا كتاباً عزيزاً فإنّا أنزلناه قـرآناً عربيّـاً وأكّدنا فيه من أنواع الوعيد لعلّهم يتّقـون النّار بالإيمان أو يحدث لهم موعظة. فتعالى الله الملك الحقّ وتنزّه عمّـا يصفه به المشـركون وتقدّس. ولا تعـجل يا محمّـد بتلاوة القرآن الكريم من قبل أن يفرغ جبريل من تلاوته كاملاً عليك وإبلاغه إيّاك. واسأل ربّـك عزّ وجلّ أن يزيدك علماً بمعانى القرآن الكريم وبكلّ ما ينفعك علمه.

((٤))

((تسلية النّبيّ ﷺ وتبيين عداوة الشّيطان الرّجيم للإنسان))

الآيات (١١٥-١٢٧)

بقصـد تسلية النّبيّ ﷺ الّذى يكاد يـهلك نفسه حـزناً لإعراض قـومه عنه واتّباع خطوات الشّيطان الرّجيم يتحوّل السّياق إلى الحديث فى عداوة اللّعين لأبوينا آدم وحوّاء عليهما السّلام. لقد أوصى الله سبحانه وتعالى آدم عليه السّلام مِنْ قَبْلُ يا محمّد ألاّ يأكل من شجرة بعينها فى الجنّة فنسي الوصيّة والعهد ولم نجد له عزماً على المضيّ قدماً إلى نهاية الشّـوط بل ضعف عزمه ونَفِدَ صبره. واذكـر يا محمّد فى القـرآن الكريم لقومك إذ قـلنا للملائكة اسـجـدوا لآدم سجـود تحيّـة وتعظيم فسـجدوا إلاّ إبلـيس الّذى كان من الجنّ فـإنّه أبى. فقلنا يا آدم إنّ هذا عـدوٌّ لك ولزوجـتك حوّاء فـلا يخرجنّكمـا من الجنّة فتـشقى أنت وراء لقـمة العـيش لك ولزوجك ومن تعول. إنّ لك فى الجنّة ألاّ تجـوع فيها ولا تعـرى، وأنّك لا تظمؤ فيها ولا تظهر لحرّ الشّمس. فوسوس إليه الشّيطان الرّجيم وقال له فى هيئة الهمس الخفيّ المستـمرّ : يا آدم، هل أدلّـك على شجرة الخلد وملك لا ينفـد. فأكلا من

الشّجرة فظهرت لهما عوراتهما وشرعا يلصقان عليهما من ورق الجنّة. وعصى آدم عليه السّلام ربّه عزّ وجلّ فغوى بالأكل من الشّجرة. ثمّ اصطفاه ربّه عزّ وجل فأرشده إلى التّوبة وقبلها منه وهداه للاستمساك بها. قال تعالى لآدم وحوّاء عليهما السّلام : اهبطا من الجنّة جميعاً أنتما وذرّيّتكما. بعضكم لبعضٍ عدوٌّ بيّن العداوة. فإن يأتكم منّى هدىً فمن اتّبع هداي فلا يضلّ فى الدّنيا ولا يشقى فى الآخرة. ومن أعرض عن كتابى العزيز فإنّ له حياةً شاقّة فى الأولى وفى البرزخ فى القبر بين الموت والبعث، ونحشره يوم القيامة أعمى البصر والبصيرة. قال ياربّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت فى الدّنيا مبصرا، قال فعلت ذلك بك لأنّك أتتك آياتنا البيّنات فتركتها. وكما تركت آياتنا البيّنات فى الدّنيا نتركك فى نار جهنّم فى الآخرة. ومثل ذلك الجزاء نجزى من أسرف على نفسه فزجّ بها فى مهاوى الرّدى ولم يؤمن بآيات ربّه جلّ وعلا. ولعذاب الآخرة أشدّ وأقوى، أدوم وابقى .

((٥))

((اعبدوا الله تعالى أيّها المؤمنون حتّى يحكم الله تعالى بينكم وبين القوم الكافرين المستهزئين))

الآيات (١٢٨-١٣٥)

قدّم كفّار مكّة الدّليل الأكبر على عمى البصيرة والاضطراب والحيرة. وقد نبّه السّياق إلى شيءٍ من ذلك حينما سأل فى إنكار : أعميت بصائر القوم فلم يتبيّنوا كثرة الأمم الّتى أهلكها الله تعالى والّتى يمشى كفّار مكّة فى مساكنهم فى أثناء سفرهم ورحلاتهم. إنّ فى ذلك لآياتٍ وعبراً لأولى العقول الرّاجحة الّتى تنهى عن القبائح، ولكنّ القوم عطّلوا عقولهم وأتوا أكبر القبائح. وقد تجاوز كفّار مكّة إلى الاستهزاء باستعجال العذاب، ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك يا محمّد بتأخير العذاب إلى يوم القيامة وباستيفاء القوم آجالهم الّتى حدّدها الله تعالى

للزمهم العذاب فى الدّنيا على الفور. وتجاه هذا التّعنّت من كفّار مكّة يؤمر عليه الصّلاة والسّلام بأن يصبر على ما يقولون، وأن يسبّح بحمد الله تعالى فى الصّلاة الّتى تنهى عن الفحشاء والمنكر والّتى جُعِلَت قُرّة عين المصطفى ﷺ فى أدائها. ومن العلماء من فهم أنّ ثمّة نصّاً على الصّلوات الخمس المفروضة. فهناك نصٌّ على الصّلاة قبل طلوع الشّمس وهي صلاة الفجر، ونصٌّ على الصّلاة قبل غروب الشّمس وهى صلاة العصر، وعلى الصّلاة فى ساعات اللّيل وتشمل صلاتى المغرب والعشاء، وعلى الصّلاة فى أطراف النهار، وهي صلاة الظّهر. إنّ وقت صلاة الظّهر يدخل بزوال الشّمس الّذى يمثّل طرف النّصف الأوّل وطرف النّصف الثّانى من النّهار. وينصّ السّياق على الثّمرة الشّهيّة لأداء المصطفى ﷺ للصّلاة المشتملة على التّسبيح بحمد الله تعالى. إنّها رضا المصطفى ﷺ فى الآخرة بثواب الله تعالى.

ولمّا كانت الدّنيا لا قيمة لها عند الله تعالى ولهذا تقبل الدّنيا بإذن الله تعالى على الكافرين وتنصرف عن المؤمنين فى الغالب، فإنّ السّياق يخاطب المصطفى ﷺ والمراد أمّته عليه الصّلاة والسّلام وينهاه أن يمدّ عينيه وتتطلّع نفسه إلى ما متّع الله تعالى به فئاتٍ من أولئك الأقوام وخصّهم به من زهرة الحياة الدّنيا ونعيمها العاجل ليبتليهم الله تعالى بما يزيد قلوبهم المنصرفة عن الحقّ انصرافا. ورزق ربّك يا محمّد فى الآخرة فى جنّات النّعيم خيرٌ وأبقى.

ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام والمراد أمّته بأن يأمروا أهلهم بالصّلاة وبأن يصبروا هم عليها ويعضّوا عليها بالنّواجذ. أمّا الرّزق فقد تكفّل الله تعالى به لكلّ دابّةٍ فى الأرض. إنّ كلّ راعٍ مسئولٌ أمام الله تعالى عن رعيّته بأن يجتهد فى وقايتهم ناراً وقودها النّاس والحجارة أعدّها الله تعالى للكافرين. أمّا الرّزق فقد تكفّل الله تعالى به لكلٍّ من الرّاعى والرّعيّة، وليس الرّزق مسئوليّة الرّاعى الّذى تقف مسئوليّته عند الاجتهاد فى تحقيق ذلك بإذن الله تعالى. ويقرّر السّياق أنّ العاقبة الحسنة للمتّقين.

ومن مظاهر عمى بصائر كفّار مكّة أنّهم يعرضون عن معجزة القرآن الكريم الكبرى النّافعة فى حقّهم لأنّهم أمّة البيان ويطلبون معجزاتٍ أخرى حسيّة تتأخّر قدراً. وينكر عليهم السّياق أنّهم لا يدركون ما اشتمل عليه هذا الكتاب العزيز من كلّ الخير الّذى اشتملت عليه الكتب السّماويّة السّابقة فى بيانٍ ووضوح إضافةً إلى ما خصّ الله تعالى به هذا الكتاب العزيز من نعوتٍ وميزات.

ومن مظاهر عمى بصائر كفّار مكّة أنّهم، وهم المعرضون عن الرّسول الكريم والكتاب العظيم، لو أنّ الله تعالى أهلكهم بعذابٍ من قبل إرسال محمّد ﷺ وإنزال أشرف الكتب عليه، ولو أنّ الله تعالى استأصل شأفتهم لسابق علمه بكفرهم وإصرارهم على الكفر عناداً واستهزاءً لقالوا : يا ربّنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك الّتى توحيها إليه من قبل أن نذلّ بالعذاب ونخزى فى جهنّم. وإنّ لسان الحال يقول ها أنتم يا هؤلاء تكفرون بالرّسول الكريم وبالكتاب العظيم وبالتّالى تستحقّون عذاب الدّنيا وخزي الآخرة.

وتجاه هذه النفسيّة المضطربة لكفّار مكّة تختم السّورة بأمر المصطفى ﷺ بأن يقول لهم : كلٌّ منّا ومنكم منتظرٌ ما يئول إليه الأمر، فستعلمون من أصحاب الصّراط المستقيم ومن اهتدى إلى طريق الحقّ.

إنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : إنّا نحن المسلمين أصحاب الصّراط المستقيم والنّور المبين، وإنّ عليكم أن تعودوا إلى الجادّة قبل فوات الأوان.

التفسير

(١)

« الله تعالى الخلاّق السّميع العليم
أنـــزل القـــرآن الـــــكريم
تذكرة للعالمين »

الآيات (١-٨)

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾
ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ
فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

طـه : من العلماء من ذهب إلى أنّ : ﴿طه﴾ من الحروف المقطّعة[1] وبشأن الحروف المقطّعة من العلماء من ذهب إلى القول فى معناها : «الله أعلم بمراده بذلك»[2] ومن العلماء من ذهب إلى أنّ ﴿طه﴾ من أسماء المصطفى ﷺ. يقول القاضى عياض فى الشّفا[3] : «قيل : طـه، اسمٌ من أسمائه ﷺ » ويقول[4] : «رُوي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : لي عند ربىّ عشرة أسماء، ذكر منها أنّ طه ويس اسمان له».

ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى : جاء فى سبب النّزول[5] : « أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس أنّ النّبيّ ﷺ كان أوّل ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على صدور قدميه إذا صلّى فأنزل الله : ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ وأخرج

---

(١) الشّفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ١/ ٤١ وفتح البارى ٨/ ٤٣٢.

(٢) الجلالين.

(٣) الشّفا ١/ ٤١.

(٤) الشّفا ١/ ٣٢.

(٥) لباب النّقول فى أسباب النّزول للجلال السّيوطى مطبوع بهامش تفسير الجلالين طبع عبد الحميد أحمد الحنفى مصر ١/ ٢٣٥.

عبد بن حميد فى تفسيره عن الرّبيع بن أنس قال : كان النّبيّ ﷺ يراوح بين قدميه ليقوم على كلّ رجلٍ حتّى نزلت : ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ وأخرج ابن مردويه من طريق العوفىّ عن ابن عبّاسٍ قال : قالوا لقد شقي هذا الرّجل بربّه فأنزل الله : ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[1].

إلاّ تذكرة : لكن أنزلناه تذكرةً به[2] تذكرة : مفعولٌ لأجله عامله مقدّر أي أنزلناه تذكرة[3].

تنزيلاً : مفعول مطلق بفعلٍ محذوفٍ تقديره نزّلناه[4].

والسّماوات العُلَى : العُلَى جمع تأنيث الأعلى[5] أي جمع عُلْيا ككبرى وكُبَر[6] والمعنى هي الأشرف والأفضل بالإضافة إلى هذا العالم[7].

الرّحمن على العرش استوى : الرحمن على عرشه ارتفع وعلا[8]

---

(١) انظر الشّفا ١/ ٤١و٤٢ وتفسير الطّبرى ١٦/ ١٠٣و١٠٤ وتفسير ابن كثير ٣/ ١٤١.

(٢) الجلالين وانظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٢٨١.

(٣) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٢٨١.

(٤) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٢٨١.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «علا» ٣٤٥.

(٦) الجلالين وانظر تفسير الطّبرى ١٦/ ١٠٤.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «علا» ٣٤٥.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٠٤.

وما تحت الثّرى : الثّـرى التّراب الرّطب المبتل[1] والمراد الأرضـــون السّبـع لأنّهـا تحته[2].

فإنّـه يعلم السّـرّ وأخفى : السّـرّ ما حدّث به الإنسان غيره سرّا. وأخفى ما حدّث به نفسه[3] والإسرار إلى الغير يقتـضى إظهار ذلك لمن يُفْضَى إليه بالسّـرّ وإن كان يقتـضى إخفاءه عن غيره، فـإنّ قولهم : أسررت إلى فلانٍ يقـتضى من وجهٍ الإظهار ومن وجهٍ الإخفاء[4].

له الأسماءُ الحُسْنى : الحُسْنى مؤنّـث الأحسن[5].

يخاطب السّياق فى أول سـورة طه المكّـيّة الكريمة المصطفى ﷺ ويقول له : أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، ما أنزلنا عليك القـرآن الكريم لتشقى وتتعذّب به، بأن تقوم ـ مثـلا ـ بتلاوته آناء الليل نافلةً لك حتّى تتورّم قـدماك وحتّى تقف على إحـدى رجليك كي تسـتريح الأخـرى، وهكذا دولَيْك. إنّا مـا أنزلنا عليك القرآن الكريم لتشـقى به لكن أنزلناه تذكرةً وموعظةً لمن يخـشى الله تعالى ويخاف القيام بين يدي ربّ العالمين يوم القيـامة. وهذا القرآن الكريم والكتاب العزيز نُـزّل تنزيلاً من الله تعالى الّذى خلق الأرض الّتى نعيش عليها وتُقِـلُّنا، وخلق السّماوات الّتى تعلونا وتُظِلُّنا. إنّ منـزّل القرآن الكريم رحـمن السّمـاوات والأرض، رحمن الدّنيا والآخـرة، الّذى وسعت رحمـته كلّ شىءٍ وحيّ، قـد استوى على عـرشه استواءً يليق بعظمته وجلاله عزّ وجل. وهذا الرّحمن الّذى كتب على نفسه الرّحمة له كلّ ما فى السّماوات وما فى الأرض وكلّ ما بينهما، مِلْكاً وخلقاً وعبيداً، وكلّ ما تحت الثّرى.

ويلاحظ تقديم لفظ الأرض على لفظ السّماوات فى الذّكر وذلك فى القول:

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٠٥.

(٢) الجلالين وانظر تفسير الطّبرى ١٦/ ١٠٥.

(٣) انظر تفسير الطّبرى ١٦/ ١٠٦.

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «سرر» ٢٢٨.

(٥) الجـــلالين.

﴿تنزيلاً ممّن خلق الأرض والسّماوات العُلَى﴾ لأنّ الإنسان الّذى يخشى الله تعالى، ويلحق به الّذى لا يخشى الله تعالى، تتقدّم عَلاقتُهُ بالأرض الّتى عليها يحيا، عَلاقَتَه بالسّماء الّتى يتأخّر فى العادة إدراك الإنسان حقيقة علاقته بها.

كما يلاحظ تقديم لفظ السّماوات على لفظ الأرض فى الذّكر وذلك فى القول : ﴿له ما فى السّماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثّرى﴾ لأنّ حديث الآية الكريمة السّابقة كان عن الرّحمن الرّحيم الّذى استوى على عرشه جلّ وعلا، لذا لزم تقديم الأرفع والأشرف فى الذّكر، وهو السّماوات.

وإنّ التّحوّل من السّماوات وهي الأعلى إلى الأرض، استتبعه التّحوّل فى الاتّجاه ذاته من الّذى هو بين السّماوات والأرض إلى الّذى هو تحت الثّرى. ونحن فى غنىً عن القول إنّ ما بين السّماوات والأرض أعلى ممّا هو تحت الثّرَى.

وبعد الحديث عن خلق الله تعالى هذا الملكوتَ وملْكه له، ممّا هو دليلٌ على القدرة المطلقة للذّات العليّة، يأتى الحديث عن إحاطة الله تعالى السّميع العليم بكلّ شيءٍ خُبْراً. إنّ ربّ العزّة والجلال يخاطب المصطفى ﷺ ابتداءً، كلّ إنسانٍ تبعاً، ويقول له : وإن تجهر بالقول أو تسرّ به لغيرك فإنّ الله سبحانه وتعالى يعلم السّرّ، ومن باب الأولى الجهر، ويعلم ما هو أخفى من السّرّ ممّا توسوس به نفس الإنسان. وحينما يحيط الله تعالى علماً بما توسوس به نفس الإنسان ممّا لا ينطق به لسانٌ ولا تسمعه أذن يكون ما ينطق به اللّسان وتسمعه الأذن، من جهر القول وسرّه، داخلاً فيما أحاط الله تعالى به علماً من باب الأحرى والأولى. علماً بأنّ الله سبحانه وتعالى يستوى عنده من أسرّ القول ومن جهر به ومن أخفاه فى صدره ووسوست به نفسه. وفى هذا المعنى قال عزّ من قائل[1] : ﴿ سواءٌ منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستَخْفٍ باللّيل وسارب ﴾ والسّارب بالنّهار الظاهر بالنّهار[2].

---

(١) سورة الرّعد ١٠.

(٢) انظر تأملات فى سورة الرّعد للمؤلّف ٧٩.

وآخر آيات القسم الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى الّذى تلك صفاته هو الله الواحد الّذى لا إله إلاّ هو ولا يستحق العبادة أحدٌ سواه، والّذى له الأسماء الحُسنى والصّفات العُلَى. جاء فى الحديث المتواتر أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مائةً إلاّ واحداً، من أحصاها دخل الجنّة[1].

والمعروف أنّ لله تعالى اسماً واحداً هو « الله » وأنّ الأسماء الباقية صفات بدليل أنّ هذا الاسم هو الّذى يوصف بسائر الأسماء. ومن ذلك قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الحشر[2] : ﴿هو الله الّذى لا إله إلاّ هو عالمُ الغيب والشّهادة هو الرّحمن الرّحيم. هو الله الّذى لا إله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر. سبحان الله عمّا يشركون. هو الله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحُسْنَى. يسبّح له ما فى السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

والمعروف كذلك أنّ لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ هو عظيم الأسماء، وأنّ : ﴿الرّحمن﴾ عظيم الصّفات. وقد جمعت هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء[3] بين هذين الاسمين من أسماء الله تعالى الحُسْنَى. قال عزّ من قائل : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرّحمن أيّاً ما تدعو فله الأسماء الحُسْنَى. ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا﴾[4].

---

(١) انظر تفسير ابن عطية ٦/ ١٥٥ وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٨ وفتح البارى ١١/ ٢١٤ حديث رقم ٦٤١٠

(٢) الآيات ٢٢-٢٤.

(٣) الآية ١١٠.

(٤) انظر هنا الجزء التّاسع من التّفسير البسيط ١٧١-١٧٣ فى تفسير الآية الكريمة الثّمانين بعد المائة من سورة الأعراف..

(٢)

« موسى عليه السّلام وفرعون الطّاغية »

الآيات (٩-٩٨)

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

وهل أتاك حديث موسى : وهل أتاك يا محمّد حديث موسى ابن عمران(١).

إذ رأى ناراً : ذكر أنّ ذلك كان فى الشّتاء ليلاً وأنّ موسى كان أضلّ الطّريق فلمّا رأى ضوء النّار قال لأهله ما قال(٢) وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الّذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم وسار بأهله. قيل قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته فأضلّ الطّريق. وكانت ليلةً شاتيةً ونزل منزلاً بين شعابٍ وجبالٍ فى بَرْدٍ وشتاءٍ وسحابٍ وظلامٍ وضباب. وجعل يقدح بزندٍ معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شررٌ ولا شيء. فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطّور ناراً(٣) قال عبد الله بن عبّاس : كان فى الشّتاء ورفعت لهم نار. فلمّا رآها ظنّ أنّها نار

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/١٠٧.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/١٠٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/١٤٣.

وكانت من نور الله قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً(١).

إنى آنست ناراً : إنىّ أبصرت ناراً(٢) ورأيتها(٣).

لعلّى آتيكم منها بقَبَس : لعلّى أجيئكم من النّار الّتى آنست بشعلة. والقبس هو النّار فى طرف العود أو القصبة. يقول القائل لصاحبه : أقبسنى ناراً فيعطيه إيّاها فى طرف عودٍ أو قصبة. وإنّما أراد موسى بقوله لأهله : ﴿لعلى آتيكم منها بقبس﴾ لعلّى آتيكم بذلك لتصطلوا به(٤).

أو أجد على النّار هدى : أي من يهدينى الطّريق. دلّ على أنّه قد تاه عن الطّريق كما قال ابن عبّاس(٥).

فلمّا أتاها نودي يا موسى : فلمّا أتى النّار موسى ناداه ربّه(٦) ورُوِي أنّه عليه السّلام نودي من شجرة(٧) والله أعلم.

فاخلع نعليك : قيل إنّما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبيعة(٨).

إنّك بالواد المقدّس طوى : إنّك بالوادى المطهّر المبارك(٩) وطُوى

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/١٠٧.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «إنس» ٢٨ والجلالين والصّاحبى لابن فارس ٥٧.

(٣) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : «أنس» ١/١٤٥.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/١٠٨.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/١٤٣ وتفسير الطّبرى ١٦/١٠٨.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/١٠٨.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/١٠٨.و١٠٩.

(٨) تفسير ابن كثير ٣/١٤٣.

(٩) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٠..

موضـــع بالشّـــام عند الطّـــور(١).

وأقم الصّلاة لذكرى : أقم الصّلاة لى فإنّـك إذا أقمتها ذكرتنى(٢).

إنّ السّاعة آتيةٌ أكاد أخفيها : عن ابن عبّاس قوله : ﴿أكاد أخفيها﴾ يقول : لا أظهر عليها أحداً غيرى(٣).

فلا يصدّنّك عنها : فلا يردّنّك يا موسى عن التّاهّب للسّاعة(٤).

فتردى : فتهلَك(٥).

وهل أتاك يا محمّد حديث مـوسى بن عمران عليه السّلام، وهل وصل إلى سمعك أيهّـا الرّسـول الكريم والنّبيّ العظيم خبره كي يثـبت فؤادك بذلك الحديث وتصبر كما صبر وأنتما مـعاً من أولى العزم الخمسة من الرّسل. وسورة طه المكّـيّة الكريمة فى حديثها عن مـوسى عليه السّلام تتجاوز الكثير من مـراحل حياته عليه السّلام وتبدأ بالحديث عن الملابسات الّتى أحـاطت بإكرام الله تعالى له عليه السّلام بنعـمة النّبـوّة. علمـاً بأنّ الآيات الكريمات سـتشـير عَـرَضاً بعـد ذلك إلى بعض الأحداث المهمّـة السّابقة فى حيـاته عليه السّلام. ومن السّور الكريمات الّتى ذكرت فى شيء من التّفصيل بعـض ملابسات حياته السّابقة عليـه السّلام سورة القصص المكّـيّة الّتى تحدّثت فى صدرها عن موسى عليه السّلام ابتداءً بالآية الكريمة الثّـالثة.

ولمّـا كانت سورة طه قـد ابتدأت حديثها عن موسى عليـه السّلام بملابسات تلقّيه الرّسـالة من ربّ العالمين بعد أن سار بأهله من مَدْيَن باتّجـاه مصر وترك فى مدين صـهره شعـيباً عليـه السّلام فإنّا نود أن نـقتبس من سـورة القصص الآيات الكريمات الّتى تتحـدّث عن توجّهه عليـه السّلام من مصر إلى مـدين، ومن مدين

---

(١) معجم البلدان : «طوى» ٤/ ٤٥ وتفسير الطّبرى ١٦/ ١١٠و١١١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٢

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٣.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٦.

(٥) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٦..

إلى مصر. قال عز من قائل(١): ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّى لك من النّاصحين. فخرج منها خائفاً يترقّب قال ربّ نجّنى من القوم الظّالمين. ولمّا توجّه تلقاء مدين قال عسى ربّى أن يهدينى سواء السَّبيل. ولمّا ورد ماء مدين وجد عليه أمّة(٢) من النّاس يسقون(٣) ووجد من دونهم امرأتين تذودان(٤) قال ما خطبكما(٥) قالتا لا نَسْقِى حتّى يُصْدِر الرِّعاء(٦) وأبونا شيخٌ كبير. فسقى لهما ثمّ تولىَّ إلى الظّلّ فقال ربّ إنّى لما أنزلتَ إلىَّ من خيرٍ فقير. فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إنّ أبى يدعوك ليجزيَكَ أجر ما سقيت لنا. فلمّا جاءه وقصّ عليه القَصَص قال لا تَخَفْ نجوتَ من القوم الظّالمين. قالت إحداهما يا أبتِ استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين. قال إنّى أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرنى ثماني حِججٍ فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشقّ عليك. ستجدنى إن شاء الله من الصّالحين. قال ذلك بينى وبَيْنَكَ أيّما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ. والله على ما نقول وكيل. فلمّا قضى موسى الأجل وسار بأهله آنسَ من جانب الطّور

---

(١) سورة القصص ٢٠-٢٩.

(٢) أمّة : جماعة.

(٣) يسقون : مواشيهم.

(٤) تذودان : تمنعان أغنامهما عن الماء.

(٥) ما خطبكما : ما شأنكما لا تسقيان.

(٦) الرّعاء جمع راع. أي يرجعون من سقيهم خوف الزّحام فنسقى. الجلالين.

ناراً قال لأهله امكثوا إنىّ آنست ناراً لعلّى آتيكم منها بخبرٍ أو جذوة(١) من النّار لعلّكم تصطلون﴾(٢) .

وهل أتاك يا محمّد خبر موسى بن عمران عليه السّلام إذ رأى ناراً وكان قد أضلّ الطّريق فى ليلةٍ شاتيةٍ مطيرةٍ فى طريقه من مدين إلى مصر ولم يكن عليه السّلام لديه نار. قال موسى عليه السّلام لأهله امكثوا فى مكانكم إنّى أبصرت ناراً عن بُعْد، لعلّى آتيكم منها بشعلةٍ نشعل بها الحطب أو أجد على تلك النّار من يهدينى الطّريق. فلمّا أتى موسى عليه السّلام النّار الّتى كانت بعيدةً منه بدليل مجىء جملة : ﴿أتاها﴾ ناداه ربّه جلّ وعلا فى الوادى المقدّس طوى بجانب جبل الطّور فى شبه جزيرة سيناء : يا موسي إنّى أنا ربّك الّذى ربّيتك بنعمى فاخلع نعليك، تعظيماً للبيعة ولأمانة الرّسالة الّتى سوف أصطفيك بها، إنّك يا موسى بالوادى المطهّر المبارك طُوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إليك وأصغ له(٣) ووجّه إليه كلّ انتباهك واهتمامك إنّنى أنا الله لا إله معبود بحقٍّ إلاّ أنا وحدى لا شريك لى، فاعبدنى دون سواي وأقم الصّلاة الّتى تنهى عن الفحشاء والمنكر لتذكرنى فيها وتسبّح بحمدى فى أثنائها. إنّ السّاعة آتيةٌ لا ريب فيها أكاد أخفيها ولا أظهر عليها أحداً غيرى لتجزى كلّ نفسٍ بما تسعى فيه من خيرٍ تثاب عليه أو شرٍّ تعاقب عليه. فلا يردّنك يا موسى عن التّأهّب للسّاعة والعمل من أجلها من لا يؤمن بها ولا يستعدّ لها فتقع فى مهاوى الرّدى، وتسقط فى قعر جهنّم ـ لا سمح الله ـ.

---

(١) جذوة : شعلة.

(٢) تصطلون : تستدفئون.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سمع» ٢٤٣.

وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

أتوكّأ عليها : أعتمد عليها وأتشدّد بها[1] حين أمشي مع الغنم[2].

وأهشّ بها على غنمي : الهشّ يقارب الهزّ في التّحريك، ويقع على الشّيء اللّيّن كهشّ الورق أي خبطه بالعصا[3] ويهشّ بها يحرّك الشّجر حتّى يسقط الورق[4] يقول : أضرب بها الشّجر اليابس فيسقط ورقها فترعاه غنمي. يقال منه : هشّ فلانٌ الشّجر يهُشّ هشّاً إذا اختبط ورق أغصانها فسقط ورقها[5].

ولي فيها مآرب أخرى : ولي في عصاي هذه حوائج أخرى، وهي جمع مأربة. وفيها للعرب لغاتٌ ثلاث، مأرُبة بضمّ الرّاء، ومأرَبة بفتحها، ومأرِبة بكسرها. وهي مفعلة من قولهم : لا أرب لي في هذا الأمر أي لا حاجة لي

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : « وكأ » ٥٣٢.

(٢) انظر تفسير الطّبري ١٦/ ١١٧.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «هشش» ٥٤٣.

(٤) تفسير الطّبري ١٦/ ١١٧.

(٥) تفسير الطّبري ١٦/ ١١٧.

فيه[1] عن ابن عبّاس، فى قوله : ﴿ولي فيهـا مآرب أخرى﴾ قال : حوائج أخرى قد علمتها[2].

سنعيدها سيرتها الأولى : سنعيدها لهـيئتها الأولى الّتى كانت عليها قبل أن نصيّرها حيّة ونردّها عصاً كما كانت. يقال لكلّ من كان على أمرٍ فتركه وتحوّل عنه ثمّ راجـعه عـاد فلانٌ سـيرته الأولى، وعـاد لسـيرته الأولى، وعـاد إلى سيـرته الأولى[3] عن ابن عبّاس، قوله : ﴿سيرتها الأولى﴾ يقول : حالتها الأولى[4].

واضمم : الضّـمّ : الجمع بين الشّيئين فصاعدا[5].

يدك : كفّك[6] ويقال إنّ المراد اليد اليمنى بمعنى الكفّ[7].

إلى جناحك : الجناح بمعنى العَـضُد[8] والعَضُـد ما بين المِرْفق إلى الكتف. ويقال : عَضَدته أخذتُ عضده وقوّيته. ويسـتعار العَضُد للمعين كاليد[9] جاء فى سورة القصص[10] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿قال سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما. بآياتنا أنتما ومن اتّبعكما الغالبون﴾.

تخرج بيـضاء من غير سوء : ذُكِـر أنّ موسى عليه السّـلام كان رجلاً آدم، فأدخل يده فى جيبه ثمّ أخرجها بيضاء من غير سوءٍ من غير برصٍ مثل الثّلج، ثمّ

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٧.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٧.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٨.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٩.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ضم» ٢٩٩.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٩.

(٧) الجـــلالين.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٩.

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عضد» ٣٣٧.

(١٠) الآيـــة ٣٥.

ردّها فخرجت كما كانت على لونه[1].

آيةً أخرى : علامةً ودلالةً أخرى، غير الآية الّتى أريناك قبلها من تحويل العصا حيّةً تسعى، على حقيقة ما بعثناك به من الرّسالة لمن بعثناك إليه[2].

موسى عليه السّلام الّذى بذل عشر سنواتٍ من زهرة شبابه مهراً لابنة شعيبٍ عليه السّلام راعياً لغنمه، حينما اتّجه بأهله من مدين إلى مصر كان فى هذه الرّحلة راعياً لغنمه الخاصّة به وبأهله. وتعتبر العصا فى يد الرّاعى من مقوّمات عمله. إنّه يتوكّأ عليها ويعتمد فى أثناء سيره ما دام القطيع ملتئماً وسائراً فى الاتّجاه الصّحيح وإلاّ لمَّ شمله بالعصا وصحّح وجهته. وحينما لا تصل الأغنام بذاتها إلى ما علا من ورق الشّجر وبَعُدَ يَهُشُّ الرّاعى بالعصا على غنمه بمعنى أنّه يهزّ برأس العصا المعقوف أغصان الشّجر كي يسقط الورق، وربّما خبط بعصاه الورق والأغصان مباشرةً للغاية ذاتها. وللعصا وراء ذلك الكثير من الفوائد، ومنها أن يعلّق الرّاعى فيها بعض أغراضه وأن يدفع بها الأذى عن نفسه من حشرةٍ ضارّةٍ أو كلبٍ عقورٍ، وما إلى ذلك . إنّ كلّ هذه المتعلّقات بالعصا يعيشها موسى عليه السّلام الّذى بلغ آنذاك الأربعين من عمره عليه السّلام، والّذى قضى جزءاً كبيراً منها فى حرفة الرّعي الّتى عرفنا أنّ العصا من أهمّ مقوّماتها.

وإنّ ربّ العزة والجلال الّذى يكلّم موسى عليه السّلام من وراء حجاب ليسأل، وهو العليم الخبير : ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾؟ وقد فطن موسى عليه السّلام فى ذلك الظّرف العصيب إلى أنّ السّؤال عن العصا يشمل منافعها فكان الجواب منه عليه السّلام بأنّ تلك الّتى بيمينه هي عصاه الّتى يتّكىء عليها ويعتمد حينما يمشى، ويخبط بها ورق الشّجر ليسقط على غنمه فتأكله، وله عليه السّلام فيها حوائج أخرى كحمل الطّعام والشّراب وطرد الهوام.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٩.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٠.

ولمّا كان ربّ العزّة والجلال الّذى اصطفى موسى عليه السّلام واحداً من أولى العزم من الرّسل يريد أن يرسله إلى قوم ماهرين فى السّحر فقد أيّد ربّ العزّة والجلال رسوله موسى عليه السّلام أوّل الأمر بآيتين من آيات تسع، هما العصا واليد. إنّ ربّ العزّة والجلال يأمر موسى عليه السّلام بأن يلقي عصاه ويرميها. ويفعل موسى عليه السّلام ما أمره الحقّ جلّ وعلا بفعله فإذا العصا حيّةٌ تسعى وثعبانٌ ضخم يجرى. ويأمر الحقّ جلّ وعلا موسى عليه السّلام بأن يأخذ الحيّة بيده، وينهاه عن الخوف منها، لأنّ الّذى يأمره بأخذها هو الله تعالى الّذى أراد للعصا أن تتحول حيّةً تسعى، وللخشبة أن تصير ثعباناً يجرى. ويُطَمْئِن الحقّ جلّ وعلا عبده وحبيبه موسى عليه السّلام بأنّه جلّ وعلا سيعيد الحية إلى سيرتها وحالتها الأولى، وسيصيّرها عصاً مرّةً أخرى، يتوكأ عليها موسى عليه السّلام ويهشّ بها على غنمه ويحقّق بها مآربه الأخرى. وآية العصا أولى معجزات موسى عليه السّلام.

ومن البيّن أنّ آية العصا ذات شقّين اثنين. الشّقّ الأوّل حينما يلقيها موسى عليه السّلام بأمر ربّه جلّ وعلا فإذا هي حيّةٌ تسعى. والشّقّ الآخر حينما يأخذ موسى عليه السّلام الحيّة بأمر ربّه جلّ وعلا فتعود عصاً مرّةً أخرى. ومن البيّن كذلك أن حديث القرآن الكريم عن آية العصا يجمع أحياناً بين شقّي هذه المعجزة، ويكتفى أحياناً أخرى بالشّقّ الأوّل منهما.

إنّ الآيات الكريمات الّتى تحدّثت عن الشّقّين معاً هذه الآيات الكريمات الّتى نحن بصددها من سورة طه. قال عزّ من قائل[1] : ﴿قال ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هي حيّةٌ تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ وواضحٌ أنّ تحقّق الشّقّين من المعجزة هنا من باب التّدريس الضّروريّ لموسى عليه السّلام والتّدريب له على التّصرّف حينما يواجه فى المستقبل سحرة فرعون الطّاغية.

وكان فى مواضع أخرى من القرآن الكريم اكتفاءٌ بالحديث عن الشّقّ الأوّل

---

(١) سورة طه ١٩-٢١.

من المعجزة، حينما تلقّى موسى عليه السّلام رسالة ربّه جلّ وعلا وحينما واجه عليه السّلام فرعون أو السّحرة. جاء فى سورة النّمل[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وألق عصاك. فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانٌّ ولّى مدبراً ولم يعقّب. يا موسى لا تخف إنىّ لا يخاف لديّ المرسلون﴾ والجانّ: الحيّة الخفيفة[2] وجاء فى سورة القَصص[3] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وأن ألق عصاك. فلمّا رآها تهتزّ كأنهّا جانٌّ ولّى مدبراً ولم يعقّب. يا موسى أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين﴾ وجاء فى كلّ من سورة الأعراف[4] وسورة الشّعراء[5] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للنّاظرين﴾ وجاء فى سورة الأعراف[6] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وأوحينا إلى موسى أن أَلْقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ وجاء فى سورة طه[7] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وأَلْقِ ما فى يمينك تلقَفْ ما صنعوا. إنّما صنعوا كيد ساحرٍ ولا يُفْلِحُ السّاحر حيث أتى﴾ وجاء فى سورة الشّعراء[8] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تَلْقَفُ ما يأفكون﴾.

من الاستعراض السّابق للآيات الكريمات يتبيّن أنّ آيات سورة طه وحدها هي الّتى تحدّثت عن شقّي آية العصا بما فى ذلك الآيات الكريمات الّتى تحدّثت عن آية العصا حينما سار موسى عليه السّلام بأهله وآنس من جانب الطّور ناراً وأوحى الله تعالى إليه. ومن الآيات الكريمات الّتى تحدّثت فى هذه المعانى واكتفت بالشّقّ

---

(١) الآية ١٠.

(٢) الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهانى : «جن» ٩٩.

(٣) الآية ٣١.

(٤) الآية ١٠٧و١٠٨.

(٥) الآية ٣٢و٣٣.

(٦) الآية ١١٧.

(٧) الآية ٦٩.

(٨) الآية ٤٥.

الأوّل من آية العصا آيات سورتي النّمل[1] والقصص[2].

ثمّ يأتى الحديث عن الآية الأخرى، وهي آية اليد، من بين آيات موسى عليه السّلام الكبرى التّسع، الّتى آتاه الله تعالى إيّاها، وأيّده بها. قال عزّ من قائل: ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوءٍ آيةً أخرى. لنريك من آياتنا الكبرى﴾.

وهذه الآية الثّانية لموسى عليه السّلام تتألّف هي الأخرى من شقّين اثنين. ووراء ذلك يتألّف كلٌّ من الشّقّين بدوره من شقين اثنين. وتفسير ذلك أنّ موسى عليه السّلام بحاجةٍ فى المرّة الأولى إلى أن يُدْخل يده، ولتكن اليد اليمنى، من فتحة صدر ثوبه أو جبّته، تلك الفتحة الّتى تسمّى بالجيب، من الجَوْب بمعنى القطع، والّتى يُدْخِل المرء فيها رأسه حينما يريد أن يرتدي الثّوب أو الجبّة. هذا هو معنى الجيب فى الأصل. وعلى موسى عليه السّلام أن يصل بكفّه إلى إبطه وأن يضمّ عضده، وهو ما بين المِرْفق إلى الكتف، ويَلْحَقُ بعضده كامل اليد اليسرى وجانبه الأيسر. هذا هو الشّقّ الأوّل من المرحلة الأولى، ذلك الشّقّ الّذى تتمّ معه عمليّة إدخال يد موسى عليه السّلام الأدماء حتّى تصل كفّه إلى إبطه فيضمّ إليها جناحه أو جانبه عليه السّلام. وهذا الشّقّ الأوّل من المرحلة الأولى يتلوه الشّقّ الآخر من هذه المرحلة حينما يُخْرج موسى عليه السّلام من إبطه يده فتخرج بيضاء تضيء كشعاع الشّمس تُغْشِى البصر من غير سوءٍ فلا مرض ولا برص[3] وتنير كأنّها فِلْقة قمر[4] وفى مثل بياض الثّلج[5] وبهذا تنتهى المرّة الأولى أو المرحلة الأولى.

---

(١) الآيات ٧-١٠.

(٢) الآيات ٢٩-٣١.

(٣) انظر الجلالين.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٥.

(٥) انظر تفسير الطّبرى ١٦/ ١١٩.

ومن الواضح أنّ اليـد فى هذه المرّة الأولى تدخل أدماء وتخـرج بيضـاء من غير سوء.

فإذا تحوّلنا إلى المرّة الأخـرى أو المرحلة الأخرى تبيّـنّا أنّـها تـتفّـق من حيث الشّكل مع المرّة الأولى فى كلّ شىء، ولـكنها تخـتلف تماماً من حـيث المضمـون والغاية. إنّ اليد فى هذه المرّة تدخل بيضاء وتخرج أدماء كسابق عهدها.

وإنّه بالنّظر إلى آيات القرآن الكريم البيّنات الّتى تحدّثت عن آية اليد يصحّ أن نقول: إنّ هـذه الآية الكريمة من سورة القَـصص، تكاد تكون الموضع الوحـيد فى القرآن الكريم الّذى جـمع بين المرحلتين الاثنتين بشأن آية يد موسى عليـه السّلام. قال عزّ من قائل[1]: ﴿اُسْلُك يدك فى جيبـك تخرج بيضاء من غيـر سوء واضمم إليك جناحك من الرّهب فـذانك برهانان من ربّك إلى فرعون وملئـه. إنّهم كانوا قومـاً فاسقين﴾ والسّلوك بمعنى الـنّفاذ فى الطّريق[2] والجيب ـ كـما عـرفنا ـ من الَجـوْب بمعنى القطع. وأصله من جُـبْت الشّىء إذا قطعتـه[3] و جُـبْت البلد إذا قطعتُه[4] وجاب الشىء جَـوْباً واجتابه: خَرَقـه. وكلّ مجوَّف قطعت وسطه فـقد جُبْتَه. وجاب الصّخـرة جَوْباً: نَقَبها. وفى التّنزيل العزيز[5]: ﴿ وثمـودَ الّذين

---

(١) سورة القَصص ٣٢.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «سلك» ٢٣٩.

(٣) لسان العرب: «جيب».

(٤) لسان العرب: «جوب».

(٥) سورة الفجر ٩.

جابوا الصخر بالواد﴾ قال الفرّاء : جابوا خرقوا الصّخر فاتّخذوه بيوتاً[١] والَجناح عبارةٌ عن اليد، لكون الجناح كاليد، ولذلك قيل لجناحى الطّائر يداه[٢] والجناح فى الأصل جناح الطّائر، يقال : جنح الطّائر أي كسر جناحه. قال تعالى[٣] : ﴿ولا طائرٍ يطير بجناحيه﴾ وسمّي جانبا الشّيء جناحيه فقيل جناحا الإنسان لجانبيه. قال عزّ وجلّ[٤] : ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أي جانبك[٥] وتدور مادّة «جنح» على الميل. يقول ابن فارس[٦] : «الجيم والنّون والحاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على الميل والعدوان. ويقال جنح إلى كذا، أي مال إليه. وسمّي الجناحان جناحين لميلهما فى الشّقّين. والجُناح : الإثم، سمّي بذلك لميله عن طريق الحقّ. والجوانح : الأضلاع، لأنّها مائلة» واحدتها الجانحة.

وبالإضافة إلى ملاحظة الميل فى كلٍّ من الجناح واليد يلاحظ اللّين والطّواعية فى كلٍّ منهما بحيث إنّ الجَناحين إذا كانا ميزان الطّائر فإنّ اليدين ميزانا الإنسان، ويكفى دليلاً على ذلك أنّ الواحد منّا فى مشيه أو سعيه أو جريه حينما يقدّم الرّجل اليمنى تتقدّم معها اليد اليسرى، وفى هذه الحال تكون اليد اليمنى متأخّرةً مع الرّجل اليسرى. وهكذا دواليْك[٧] والرّهب بمعنى الفزع[٨] والرّهبة[٩] والخوف الحاصل من إضاءة اليد[١٠] بعد خروجها فى المرحلة الأولى بيضاء من غير سوء.

---

(١) لسان العرب : «جوب».

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «جنح» ١٠٠.

(٣) سورة الأنعام ٣٨.

(٤) سورة طه ٢٢ وسورة القصص ٣٢.

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «جنح» ١٠٠.

(٦) معجم مقاييس اللّغة : «جنح» ١/ ٤٨٤.

(٧) درسنا لفظة جناح بتوسّع فى كتابنا : تأمّلات فى سورة الإسراء ١٠٨-١١٠ فى أثناء دراسة الآية رقم ٢٤ من السورة الكريمة

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «رهب» ٢٠٤.

(٩) لسان العرب : «رهب».

(١٠) الجلالين.

ومعنى آية سورة القصص الكريمة، والله تعالى أعلم، أَدْخِل يا موسى يدك اليُمْنَى فى طوق قميصك الّذى تُدْخِل فيه رأسك حينما تريد أن تلبسه حتّى تصل كفّك إلى إبطك واضمم إليك جناحك وعضدك ويدك وجانبك على كفّك وأخرج يدك تخرج خلاف ما كانت عليه من الأُدمة بيضاء تضىء كشعاع الشّمس تُغْشِى البصر من غير سوءٍ ومن دون مرضٍ ولا برصٍ ولا أذى. وإن أردت ليدك البيضاء أن تعود أدماء كما كانت فأدخل يدك البيضاء فى طوق قميصك حتّى تصل كفّك إلى إبطك وتحت عضدك واضمم إليك جناحك ويدك وجانبك من الرّهب وبسبب الخوف الّذى انتابك والفزع الّذى حلّ بك تخرج يدك كما كانت من قبل أدماء. إنّ ذَيْنِكَ الدّليلين، العصا واليد، برهانان على نبوّتك من ربّك جلّ وعلا إلى فرعون مصر الطّاغية وملئه الضّالّين عن سواء السبيل، إنّهم كانوا قوماً خارجين عن الصّراط المستقيم دائماً.

ممّا سبق يتبيّن أنّ الآية الكريمة من سورة القصص قد تحدّثت عن آية يد موسى عليه السّلام بمرحلتيها، وذلك على غرار حديث آية سورة طه عن آية عصا موسى عليه السّلام بمرحلتيها كذلك.

فإذا تحوّلنا بشأن آية اليد إلى سائر آي الذّكر الحكيم تبيّنّا أنّها جميعها تكتفى بالحديث عن المرحلة الأولى الّتى تنتهى بخروج يد موسى عليه السّلام

بيضاء من غير سوء. جاء فى سورة طه[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوءٍ آيةً أخرى﴾ وواضحٌ وجه الشَّبه بين الآية الكريمة هنا وآية سورة القصص الكريمة فى القول : ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ والمراد بالآية الأخرى الآية الثّانية من بين آيات موسى عليه السّلام التّسع. وجاء فى سورة النّمل[2] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ فى تسع آيات إلى فرعون وقومه. إنّهم كانوا قوماً فاسقين﴾ وجاء فى سورتي الأعراف[3] والشّعراء[4] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للنّاظرين﴾.

وإنّ آيتى العصا واليد كبرى آيات موسى عليه السّلام التّسع وإلى هذه الصّفة أشارت الآية الكريمة من سورة طه : ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾

---

(١) الآية ٢٢.

(٢) الآية ١٢.

(٣) الآية ١٠٧و١٠٨.

(٤) الآية ٣٢و٣٣.

اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن
لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ
أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾
إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ
فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾

إنّه طغى : إنّه تجاوز قدره وتمرّد على ربّه(١).

ربّ اشرح لى صدرى : أصل الشّرح بَسْطُ اللّحمِ ونحوه. يقال شَرَحت اللّحم وشرّحته. ومنه شَرْح الصَّدْر أي بَسْطُه بنورٍ إلهيّ وسكينةٍ من جهة الله ورَوْح منه(٢).

يقول : ربّ اشرح لى صدري لأعي عنك ما تودعه من وحيك وأجترىء به

(١) تفسير الطبرى ١٦/ ١٢٠.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «شرح» ٢٥٨.

على خطاب فرعون(١).

واحلل عقدةً من لسانى : لجمرة نار أدخلها فى فيه عن أمر امرأة فرعون تدرأ به عنه عقوبة فرعون حين أخذ موسى بلحيته وهو لا يعقل فقال هذا عدوّ لى فقالت له إنّه لا يعقل. هذا قول سعيد بن جبير(٢) ويقال إنّ اللّثَغ الّذى أصابه وهو طفل كان حين عُرِض عليه التّمرة والجمرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه(٣) ويعلّق ابن كثير على الحادثة(٤) : «وما سأل أن يزول ذلك بالكلّيّة بل بحيث يزول العيّ ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال ولكنّ الأنبياء لا يسألون إلاّ بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقيّة. قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنّه قال : ﴿أم أنا خيرٌ من هذا الّذي هو مَهينٌ ولا يكاد يبين﴾(٥) أي يفصح بالكلام» ومع هذا الّلثَغ فى لسانه عليه السّلام قد كان خطيباً يفقه قومه عليه السّلام قوله لهم استجابةً لدعائه ربّه جلّ وعلا. وممّا جاء فى هذا المعنى من الحديث الّذى رواه البخاريّ فى صحيحه(٦) عن ابن عبّاس عن أبيّ كعب أنّ رسول الله ﷺ قال إنّ موسى عليه السّلام : «ذكّر النّاس يوماً حتّى إذا فاضت العيون ورقّت القلوب ولىّ. . . .».

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٠.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٦.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٦

(٥) سورة الزّخرف ٥٢.

(٦) انظر فتح البارى ٨/ ٤١١ حديث رقم ٤٧٢٦.

واجعل لى وزيراً من أهلى : واجعل لـى عوناً من أهل بيتى هارون أخى(١) والوزير المتحمّل ثِقْل أميره وشُـغْلَه(٢).

أُشدد به أزرى : قـوّ ظهرى وأعنّى به. يقـال منه : قد أَزَرَ فـلانٌ فلاناً إذا أعانه وشدّ ظهره(٣).

قال قد أوتيت سؤلك يا موسى : قـال الله لموسى ﷺ قد أعطيت ما سألت يا موسى ربّـك(٤).

ولقـد منـنّـا عليك مـرّةً أخـرى : يقـال : منّ فـلانٌ علـى فـلانٍ إذا أثقله بالنّعمـــة(٥) يقـول تعالى ذكـره : ولقد تطوّلنا عـليك يا موسى قـبـل هذه المرّة مـــرّةً أخرى(٦).

إذ أوحينا إلى أمّـــك ما يوحى : حين أوحينا إلى أمّك إذ ولـدتك فى العام الّذى كان فرعون يقتل كلّ مولودٍ ذكرٍ من قومك ما أوحينا إليها(٧).

أن اقذفيه فى التّابوت : التّابوت وعاءٌ كالصُّـندوق(٨).

---

(١) تفسير الطبرى ١٦/ ١٢١.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «وزر» ٥٢١.

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٦/ ١٢١.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٢.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «منن» ٤٧٤.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٢.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٢.

(٨) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «تابوت» ٧٢

فاقذفيه فى اليمّ : يعنى باليمّ النّيل(١) واليمّ : البحر(٢) وأصل البحر كلّ مكانٍ واسع جامع للماء الكثير(٣).

وألقيت عليك محبّةً منّى : لأنّه حبّبه إلى كلّ من رآه. ومعنى : ﴿ألقيت عليك محبّةً منّى﴾ حبّبتك إليهم(٤).

ولتصنع على عينى : بمرأىً منّى ومحبّةٍ وإرادة(٥) قال بعض الحكماء : إنّ الله تعالى إذا أحبّ عبداً تفقّده كما يتفقّد الصّديق صديقه(٦).

إذ تمشى أختك : حين تمشى أختك تتبعك حتّى وجدتك(٧).

هل أدلّكم على من يكفله : الكفالة : الضّمان(٨) والكافل : الّذى كَفَلَ إنساناً يعوله وينفق عليه(٩) والمعنى : هل أدلّكم على من يضمّه إليه فيحفظه ويرضعه ويربّيه(١٠).

فرجعناك إلى أمّك : فرددناك إلى أمّك(١١).

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٢.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «اليمّ» ٥٥٢.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «بحر» ٣٧.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٣.

(٥) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٣

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «صنع» ٢٨٧.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٣

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «كفل» ٤٣٦.

(٩) لسان العرب : «كفل».

(١٠) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٤

(١١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٤

كي تَقَرَّ عينهـا : قرَّت عينه تَقَرُّ : سُرَّت. وقيل لمن يُسَـرّ به قرّة عين. قيل أصله من القُرّ أي البَرْد فقرّت عينه قيل معناه بَرَدَت فصحّتْ[١].

ولا تحزن : الحاء والزاء والنّون أصلٌ واحد. وهو خشونة الشّيء وشدّةٌ فيه. فمن ذلك الحَزْن، وهو ما غَلُظ من الأرض[٢] والحُـزْن والحَـزَن خشونةٌ فى الأرض وخشونةٌ فى النّفس لما يحصل فيه من الغمّ، ويضادّه الفرح[٣].

وقتلت نفساً : قَـتْلُه القبطيّ الّذى قتله حين استغاثه عليـه الإسرائيليّ فوكزه موسى[٤] وإلى هـذه الحادثة أشارت الآيـة الكـريمة الخامسة عشرة مـن سورة القَصص.

فنجّـيناك من الغمّ : الغين والميم أصلٌ واحـدٌ يدلّ على تغطـية وإطـباق. تقول : غَممْتُ الشّيء أغُمُّه أي غطّيته[٥] وسترته[٦] وغمّه الأمر يغمُّـه غَمّـاً، وهو شيءٌ يَغْشَى القلب[٧].

وفتنّاك فتونا : ابتليناك ابتلاءً واختبرناك اختباراً[٨].

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «قر» ٣٩٨.

(٢) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : «حزن» ٢/ ٥٤.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حزن» ١١٥.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٤.

(٥) معجم مقاييس اللّغة : «نجم» ٤/ ٣٧٧.

(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «غم» ٣٦٥.

(٧) معجم مقاييس اللّغة : «غم» ٣٧٨.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٤.

ثمّ جئت على قَدَرٍ يا موسى : ثمّ جئت للوقت الّذى أردنا إرسالك إلى فرعون رسولاً ولمقداره [1]عن مجاهد. قال : ﴿على قَدَرٍ يا موسى﴾ قال : موعد[2] والعرب تقول : جاء فلانٌ على قدرٍ إذا جاء لميقات الحاجة إليه. ومنه قول الشاعر :

نال الخلافة أو كانت له قدراً ● كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ[3]

يأمر ربّ العزّة والجلال رسوله موسى عليه السّلام بأن يذهب إلى فرعون مصر، إنّه طغى وبغى على عباد الله تعالى. ومعروفٌ أنّ موسى عليه السّلام قد وُلِد وترعرع فى مصر على عهد فرعون حتّى غادر مصر فى سنّ الثّلاثين، بعد أن قتل القبطيّ وتوجّه تلقاء مدين. إنّه عليه السّلام يعلم جيّداً عبء الرّسالة الّتى اصطفاه الله تعالى بها وصعوبة المهمّة، لذا هو يلوذ بربّ العالمين ويلجأ إلى أرحم الرّاحمين. إنّه عليه الصّلاة والسّلام يسأل ربّه جلّ وعلا أن يشرح صدره ويبسطه لحمل الرّسالة فلا ضيق ولا حرج. وأن ييسّر أمره ويسهّل مهمّته كي يبلّغ فرعون وملأه رسالة ربّه عزّ وجلّ. وأن يحلل عقدةً من لسانه كي يبين عمّا فى نفسه عليه السّلام ويفقهوا قوله. وأن يجعل له وزيراً من أهله ومعينا يشاركه فى حَمْلِ ثِقْل الرّسالة وعبء الأمانة. إنّه يعنى شقيقه هارون عليه السّلام. وإنّ موسى عليه السّلام لا يكتفى بأن يسأل الله تعالى الكريم الوهّاب أن يشدّ بهارون شقيقه ظهره فى أيّ صورةٍ من الصّور إنّما يسأل الله تعالى أن يمنّ على شقيقه بأكبر نعمةٍ يصطفى الله تعالى بها واحداً من عباده عزّ وجلّ المُنْعَم عليهم، وهي نعمة الرّسالة الّتى أنعم الله تعالى بها على موسى عليه السّلام، كي يكون هارون عليه السّلام شريكاً لموسى عليه السّلام فى حمل الرّسالة وأداء الأمانة. ويبيّن موسى عليه السّلام الغاية السّامية الّتى يرمى إليها من دعائه العريض ورجائه البليغ : ﴿كي نسبّحك كثيراً. ونذكرك كثيرا. إنّك كنت بنا بصيرا﴾ وتسبيح الله تعالى تنزيهه

(١) تفسير الطّبرى ١٦/١٢٨.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/١٢٨.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/١٢٨.

بقول : سبحان الله. وذكر الله تعالى ذكراً كثيراً يكون بالقلب واللّسان وترجمة ما فيهما إلى عمل. إنّ الله تعالى هو البصير دائماً بظواهر الأمور وبواطنها، فلا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك ما توسوس به نفس كلٍّ من موسى وهارون عليهما السّلام.

ويؤتي الله تعالى موسى عليه السّلام ما سأل. فهاهوذا هارون عليه السّلام يجيء عنه قول الحقّ عزّ وجلّ في سورة مريم [1]: ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّا﴾ كما جاء قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً لهما في سورة الشّعراء[2] : ﴿فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول ربّ العالمين﴾.

وكما منّ الله تعالى على موسى عليه السّلام بجعل شقيقه هارون عليه السلام رسولا، منّ عليه من ذى قبل إذ أنجاه من فرعون وملئه أن يقتلوه من دون سائر أطفال بنى إسرائيل الّذين قتلهم فرعون الطّاغية خوفاً على ملكه الّذى قيل له إنّ ذهابه يكون على يد شخصٍ من بنى إسرائيل . وقد تبع هذه المنّة غيرها من المنن. أمّا المنّة الكبرى الّتى طال الحديث عنها فإنّها منّة الإنجاء من فرعون وملئه. ويلاحظ أنّ السّياق يخاطب موسى في ضمير المخاطب ويذكّره بالمنّة عليه حين أوحى الله تعالى إلى أمّ موسى وألهمها ذلك الوحي الجليل الشّأن والإلهام العظيم الأثر. إنّها إذا خافت على موسى الرّضيع من فرعون وملئه أن يقتلوه عليها أن ترضع الطّفل، وتقذفه فى التّابوت وهو شيءٌ يشبه الصّندوق على هيئة المهد، وتقذف التّابوت فى نهر النّيل الغزير الماء السّريع الجريان. وإنّ على نهر النّيل أو اليمّ أن يلقي التّابوت بالسّاحل في موضعٍ بعينه كي يأخذه فرعون الطّاغية، العدوّ لله تعالى والعدوّ لموسى عليه السّلام. وبإذن الله تعالى كلّ ذلك قد كان. وألقى الله تعالى على موسى عليه السّلام محبّةً منه عزّ وجلّ تجلّت فى حبّ النّاس له، ابتداءً بامرأة فرعون، الّتى نهت عن قتل موسى ورجت أن ينفعها هي وفرعون أو

---

(١) الآية ٥٣.

(٢) الآية ١٦ وانظر الآية الكريمة ٤٧ من سورة طه.

أن يتّخذاه ولدا. وها هو ذا موسى عليه السّلام تكلؤه عناية الله تعالى وينشأ كما أراد الله تعالى فى بيت عدوّ الله تعالى فرعون الطّاغية.

إنّ موسى عليه السّلام حينما دخل بيت فرعون حرّم الله تعالى عليه المراضع، وتجيء أخته التى أمرتها أمّها أن تقفو أثره وتتحسّس خبره كي تقول لهم: ﴿هل أدلّكم على من يكفله﴾ وهل أرشدكم إلى من يربّيه لكم، وهم له ناصحون. وهكذا يردّ الله تعالى موسى عليه السّلام إلى أمّه كي تقرّ عيناً، وتهدأ نفساً، وتنشرح صدراً، وكيلا تحزن على فراق فلذة كبدها.

وتلا هذه المنّة مجموعةٌ من المنن. إنّ ربّ العزّة الّذى غفر لموسى عليه السّلام قتله الرّجل القبطيّ ينجّيه من غمّ مطاردة الملأ من آل فرعون له عليه السّلام ليقتلوه، ويهديه سواء السّبيل بأن يتّجه من مصر إلى مدين، وينزل عليه الخير الفقير إليه حينما أخبرته إحدى المرأتين اللّتين سقى لهما ماشيتهما بأنّ أباها يدعوه ليقدّم له جزاء سقي الماشية لهما. وتتوّج النّعم بزواجه عليه السّلام من إحدى ابنتي شعيب عليه السّلام. وبعد قضاء موسى عليه السّلام الأجل أجيراً عند شعيب عليه السّلام ومدّته عشر سنوات مهراً لابنة شعيب عليه السّلام توجّه عليه السّلام إلى مصر. وحينما وصل إلى طور سيناء كان عليه السّلام قد جاء على الموعد الّذى قدّره الله تعالى كي يبعثه عزّ وجلّ رسولاً إلى فرعون وملئه.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد اصطنع موسى عليه السّلام لنفسه عزّ وجلّ: ﴿واصطنعتك لنفسى﴾ أي أنعمت عليك يا موسى هذه النّعم ومننت عليه هذه المنن اجتباءً منّى لك واختياراً لرسالتى والبلاغ عنّى والقيام بأمرى ونهيى[1] وإذا كان الصنع بمعنى إجادة الفعل فإنّ الاصطناع المبالغة فى إصلاح الشّىء[2].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٨.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «صنع» ٢٨٦و٢٨٧.

عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : التقى آدم وموسى، فقال موسي لآدم : آنت الّذى أشقيت النّاس وأخرجتهم من الجنّة؟ قال له آدم : آنت الّذى اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التّوراة؟ قال : نعم. قال : فوجدتها كُتِب عليّ قبل أن يخلقنى؟ قال : نعم. فحجّ آدمُ موسى[1].

(١) فتح البارى ٨/ ٤٣٤ حديث رقم ٤٧٣٦.

اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا
فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا
أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ
الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا
وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

ولا تنيا فى ذكرى : عن ابن عبّاس : لا تبطئا ولا تضعفا[1] يقول : ولا تضعفا فى أن تذكرانى فيما أمرتكما ونهيتكما، فإنّ ذكركما أيّاي يقوّى عزائمكما ويثبّت أقدامكما لأنّكما إذا ذكرتمانى ذكرتما منّى عليكما نعماً جمّة ومناً لا تُحصى كثرة. يقال منه : ونَى فلانٌ فى هذا الأمر وعن هذا الأمر إذا ضعف وهو

(١) تفسير الطبرى ١٦/١٢٩.

يَنِي ونَى[1].

لعلّه يتذكّر أو يخشى : لعل فرعون يتّعظ أو يخشى الله فيرجع. والتّرجّى بالنّسبة إليهما لعلمه بأنّه لا يرجع[2].

إنّنا نخاف أن يَفْرُط علينا : إنّنا نخاف فرعون إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه أن يَعْجَلَ علينا بالعقوبة. وهو من قولهم : فَرَطَ منّى إلى فلان أمر اذا سبق منه ذلك إليه[3] والفارط والفَرَط بالتّحريك : المتقدّم إلى الماء يتقدّم الواردة فيهيّىء لهم الأرسان والدّلاء ويملأ الحياض ويستقى لهم[4] ومنه قول النّبيّ ﷺ : أنا فَرَطُكم على الحوض، أي أنا متقدّمكم إليه[5] والإفراط أن يُسْرِف فى التّقدّم، والتّفريط أن يقصّر فى الفَرَط[6].

أو أن يطغى : يتجاوز الحدّ فى العصيان[7].

إنّنى معكما أسمع وأرى : أسمع ما يجرى بينكما وبينه فأفهمكما ما تحاورانه به وأرى ما تفعلان ويفعل[8].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٢٨ وانظر لسان العرب : «ونى».

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٠.

(٤) لسان العرب : «فرط» والأرسان : الحبال والواحد رَسَن.

(٥) لسان العرب : «فرط».

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فرط» ٣٧٧.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «طغى» ٣٠٤.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٠.

فأرسل معنا بنى إسرائيل : إلى الشّام[1].

والسّلام على من اتّبع الهدى : والسّلامة من العذاب[2]. لمن اتّبع هدى الله، وهو بيانه. يقال : السّلام على من اتّبع الهدى ولمن اتّبع بمعنىً واحد[3].

أنّ العذاب على من كذّب وتولّى : كذّب بكتاب الله وتولّى عن طاعة الله[4] كذّب بقلبه وتولّى بفعله[5].

ربّنا الّذى أعطى كلّ شىءٍ خلقه ثمّ هدى : يقول : ربّنا الّذى خلق الخلق وقدّر القدر وجبل الخليقة على ما أراد[6].

قال فما بال القرون الأولى : فما شأن الأمم الخالية من قبلنا لم تقرّ بما تقول ولم تصدّق بما تدعو إليه ولم تخلص له العبادة ولكنّها عبدت الآلهة والأوثان من دونه إن كان الأمر على ما تصف من أنّ الأشياء كلّها خَلْقُهُ وأنّها فى نعمه تتقلّبُ وفى مننه تتصرّف[7] .

فى كتاب : من أمّ الكتاب[8] وهو اللّوح المحفوظ وكتاب الأعمال[9].

---

(١) الجلالين.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٠.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٠

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٥.

(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٥.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٢

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٢

(٩) تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٥.

لا يضلّ ربّى : لا يخطىء ربّى فى تدبيره وأفعاله[1] والعرب تقول : ضلّ فلانٌ منزله إذا أخطأه يَضِلّه بغير ألف. وكذلك ذلك فى كلّ ما كان من شىء ثابت لا يبرح فأخطأه مريده فإنّها تقول: ضلّه ولا تقول أضلّه. فأمّا إذا ضاعَ منه ما يزول بنفسه من دابّة وناقة وما أشبه ذلك من الحيوان الّذى ينفلت منه فيذهب فإنّها تقول : أضلّ فلانٌ بعيرهً أو شاته أو ناقته يُضلّه بالألف[2].

ولا ينسى : ولا يترك فعل ما فعله حكمةٌ وصواب[3].

الّذى جعل لكم الأرض مهداً : المهد والمِهاد المكان الممهّد الموطّأ[4] والفِراش[5].

وسلك لهم فيها سبلا : وأنهج لكم فى الأرض طرقاً[6] والسّلوك : النّفاذ فى الطّريق[7].

أزواجاً : ألواناً[8] وأصنافاً[9].

من نباتٍ شتّى : مختلفة الأنواع[10]

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٢.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٢.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٢.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «مهد» ٤٧٦.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «مهد» ٤٧٦ والجلالين وتفسير الطبرى ١٦/ ١٣٣.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٣.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سلك» ٢٣٩.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٣.

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «زوج» ٢١٦ والجلالين.

(١٠) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «شتت» ٢٥٥.

لأولى النُّهى : يعنى أهل الحِجى والعقول. والنُّهى جمع نُهْية[1] العقل النّاهى عن القبائح[2].

تارةً أخرى : مرّةً أخرى[3].

يأمر الله تعالى موسى عليه السّلام أن يذهب هو وشقيقه هارون عليه السّلام بآياته عزّ وجلّ البيّنات، إلى فرعون مصر الّذى طغى وبغى وتجاوز كلّ الحدود فى العدوان. وينهيان عن التّقصير فى ذكر الله تعالى فى أثناء أداء هذه المهمّة الخطيرة، لأنّ ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً خير زادٍ يتزوّد به كلّ من يدعو إلى سبيل ربّه عزّ وجلّ وخير معينٍ له على التّصدّى للصّعاب ومناجزة الأشرار.

ومع أنّ ربّ العزّة والجلال يرسل موسى وهارون عليهما السّلام إلى فرعون مصر طاغية زمانه وكلّ زمان فإنّ ربّ العزّة والجلال يأمرهما بأن يقولا لفرعون الطّاغية قولاً ليّناً وكلاماً هيّناً لعلّ فرعون الطّاغية يتّعظ ويتذكّر ربّه عزّ وجلّ فيعود إليه، ولعلّ قلبه يلين، وفؤاده يرقّ، ويخشى ربّه جلّ وعلا، ويخاف المقام بين يديه يوم القيامة.

ويعبّر كلٌّ من موسى وهارون عليهما السّلام بصريح العبارة لربّهما جلّ وعلا بأنّهما إذا ذهبا إلى فرعون يخافان أن يَعْجَلَ عليهما بالعقوبة أو يبغي عليهما ويتجاوز كلّ الحدود فى العدوان إلى الطّغيان. وينهاهما ربّهما عزّ وجلّ عن الخوف من فرعون الطّاغية فإنّه عزّ وجلّ الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء والّذى له الحُكم وإليه يَرْجع الخلائق يسمع ما يقولون لفرعون ويقول لهما، ويرى مايفعلان ويفعل. ويأمرهما عزّ وجلّ بأن يأتيا فرعون ويبلّغاه رسالة الله تعالى بأن يفرده عزّ وجلّ بالعبادة، وبأن يرسل معهما بنى إسرائيل إلى الشّام ويكفّ عن تعذيبهم وسومهم الخَسْف، وبأن يتدبّر آيات الله تعالى البيّنات الّتى أيّد الله تعالى بها موسى وهارون عليهما السّلام، وبأن يعلم أنّ السّلامة من العذاب

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٣.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «نهى» ٥٠٧.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣٣.

والأمن والطمأنينة على من اتّبع هدى الله تعالى، وأنّ الله تعالى قد أوحى إلى موسى وهارون عليهما السّلام أنّ عذاب الله تعالى على من كذّب بقلبه ولسانه وأعرض بجسده وعمله.

ومن أهمّ ما يلفت الانتباه في القول: ﴿فأتياه فقولا إنّا رسولا ربّك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذّبهم قد جئناك بآيةٍ من ربّك﴾ جمع السّياق في نسق بين جملتي أتى وجاء وتأكيد النّظريّة الّتي تقول: إنّ جملة: «أتى» تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ. وإنّ جملة: «جاء» تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب الزمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ. وبشأن القول خطاباً لموسى وهارون: ﴿فأتياه﴾ يصحّ أن يقال إنّنا بصدد إيماءٍ إلى البعد المكانيّ وربّما كنّا أيضاً بصدد إيماء إلى البعد المعنويّ أو النّفسيّ بدليل تعبيرهما عليهما السّلام عن خوفهما من فرعون أن يعاجلهما بالعقوبة أو أن يطغى عليهما. وبشأن القول خطاباً لفرعون على لسان موسى وهارون عليهما السّلام: ﴿قد جئناك بآيةٍ من ربّك﴾ يصحّ أن يقال إنّ الحديث يشير إلى مجيئهما عليهما السّلام ووصولهما فعلاً إلى فرعون بآيات الله تعالى البيّنات.

ويبادر موسى وهارون عليهما السّلام إلى تنفيذ ما أمرهما ربّهما عزّ وجل به وها هوذا فرعون الطّاغية يقول لموسى وهارون عليهما السّلام: من ربّكما. ويجيء اسم موسى عليه السّلام بالذّات لأنّه هو الأصل ولأنّه عليه السّلام الطّرف الأوّل في الحوار مع فرعون الطّاغية. قال موسى عليه السّلام: ربّنا الله تعالى الّذي خلق الخلق، وأوجده على الهيئة الّتي أرادها له، وهداه إلى المهمّة المنوطة به، وأرشده إلى الوظيفة الّتي سخّره من أجلها. قال فرعون: فما شأن الأمم الماضية الّتي لم تعبد هذا الإله الّذي تدعونا يا موسى إلى إفراده بالعبادة. قال موسى: علم تلك الأمم وما كسبت عند ربيّ عزّ وجلّ، في كتابٍ هو اللّوح المحفوظ، لا يخطيء ربيّ عزّ وجلّ ولا ينسى شيئاً كبر أو صغر جلّ أو هان. وسيجازي عزّ وجلّ كلاًّ بما عمل من خير أو شرّ. إنّه عزّ وجلّ الّذي أحاط علماً